موسى عليه السلام في مدين

بعد حادثة قتل المصري في المدينة العبرانية بمصر، هرب موسى ولجأ لمدينة مدين، تلك المدينة التي يقطنها سكان ذوو أصول عربية، تقول التوراة إنهم ينتسبون بالقربى البعيدة إلى بني إسرائيل وإلى عرب الحجاز أيضاً، حيث إنهم - حسب ما ذكرت التوراة - هم أبناء إبراهيم عليه السلام من زوجته (قطورة)، وقد حدد المؤرخون موقع هذه المدينة في الاتجاه الشرقي من خليج العقبة، قد دلت الأبحاث الحديثة أن المديانيين العرب سكان سيناء الذين منهم عائلة حوباب ويثرون حمو موسى وكاهن مديان، والذي كانت صناعتهم الحدادة، كانوا يستعملون الحروف الأبجدية العربية حوالي سنة ١٥٠٠ قبل الميلاد، وهي أقدم الحروف الهجائية للألف باء، والتي استعارها الإسرائيليون لتكوين حروف لغتهم، ولكن الذي استنبطها وطورها أصلاً هم الكنعانيون سكان سوريا وأخذها منهم وطورها أيضاً اليونانيون[1]، وعلى العموم فإن الغالبية العظمى من محللي وناقدي الوثيقة التوراتية تاريخياً، يرون أن مرحلة تواجد موسى في مدين هي الملاذ الذي أدى إلى خروج الديانة اليهودية في شكلها الحالي. وبالأخص من حيث الفلسفة اللاهوتية، وهؤلاء المحللون يرون أن الإله (يهوه) هو الشكل النهائي من إله الحرب المديانى، وأن موسى حاول فرض هذا الإله على القبائل الإسرائيلية كلها بشكل إله موحد، بل وأن فترة تواجد موسى في مدين كانت هي مرحلة التدريب العملي له على طبائع الصحراء القاسية، تلك التي كان على موسى أن يقود قومه خلالها لعقود من الزمن، وعلى العموم فإن كاتبي التوراة لم يعطونا رداً صريحاً ومباشرًا للرد على تلك النظريات.

إلا أن القرآن الكريم يعارض تلك النظريات معارضة تامة من حيث الحدث ذاته قبل الفكرة الدينية المعلومة للجميع، فمن حيث الحدث يخبرنا أن موسى عليه السلام قضى في مدين من ثماني إلى عشر حجج أو سنوات قمرية فقط، لا أربعين سنة كما ادعت التوراة، وهي فترة ليست بكافية لحدوث هذا الانقلاب الفكري الكامل.

كما يخبرنا أيضاً أن بدايات الرسالة الدينية كانت قد ظهرت في تلك الحقبة، التي كان فيها موسى معلماً لأهل مدين لا متعلماً منهم، يقول تعالى: ﴿... وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا

(١) انظر كتاب تاريخ إسرائيل، الأب متى المسكين، ص٧.

فِيٓ أَهۡلِ مَدۡيَنَ تَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [القصص]، كما أن الوصف القرآني لوصف فترة مكوث موسى في مدين بلفظ (حجج)، إنما يشير إلى اتصال موسى أثناء تلك الفترة في تلك المنطقة من شمال الحجاز بعقيدة إبراهيم الحنيف عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام، جد (موسى اللاوي) وجد بني إسرائيل من (سارة)، وجد (العرب) من (هاجر)، وجد (المديانيين) من (قطورة) على حد سواء. والذي وصل إلى أداء مناسك الحج في مكة، إلى البيت الحرام الذي أرسى قواعده إبراهيم عليه السلام، والذي لا يبعد كثيراً من الناحية الجغرافية عن أراضي مدين.

نبدأ النقاش حول مرحلة مدين بذكر أن التوراة عينت شخصية حمي موسى بأنه (كاهن مدين)، وهذا الوصف هو أعلى المراتب الدينية في تلك المنطقة، ولفظة (كاهن) تحمل نفس المدلول في التوراة وهي أعلى المراتب الدينية أيضاً، وكان القرآن على عكس التوراة في ذلك الوصف لهذا الرجل، بل يعطينا انطباعاً بأنه رجل مسن وصالح السيرة، وربما يكون متوسط الحال، مما يتناسب مع تزويجه رجل غريب معدم بابنته نظير معاونته في رعي أغنامه ومواشيه، حيث لم يكن له خدم يساعدونه في الرعي أو حتى إحضار الماء من البئر، ويحق لنا من هنا أن نتساءل عن هذا الكاهن الرفيع المرتبة في مجتمع مدين، والذي كان الرعاة والسوقة والدهماء يطردون ابنتيه عند البئر فلا تستطيعان سقي مواشيهما إلا في النهاية بعد أن يقوم الجميع بقضاء حوائجهم من البئر حسب ما روته التوراة ذاتها في تلك الحادثة؟!(١).

وهناك نقطة خلاف ثانية بين القرآن والتوراة في تلك الجزئية، ألا وهي أن القرآن الكريم ذكر بأن موسى عليه السلام قضى في مدين من ٨ – ١٠ سنوات قمرية، قام فيها برعي مواشي حميه كمهر للزواج من ابنته صفورة، أما التوراة فقد ادعت أنه قضى ٤٠ سنة، ولم تحدد لنا أي من هذه السنوات كانت محددة لذلك المهر.

(١) شخصية حمى موسى هذا أثيرت شائعة حولها بأنه هو النبي القرآني «شعيب» الذي كان نبياً لأهل مدين، وهذا النبي لا وجود لأي أثر له في فترة تواجد موسى في تلك الحقبة، كما أن أهل مدين قد أهلكوا بكارثة طبيعية في زمن النبي شعيب، وهذا ليس له ذكر في قصة موسى في القرآن، حيث إن خطيئة أهل مدين هي الغش في الموازين والمكاييل والتجارة مما يشير إلى ما للتجارة من أهمية في تلك المنطقة المهمة الواقعة بين مصر وآسيا والمستقلة عن النفوذ المصري إبان عهد موسى.

وفي الواقع أن القرآن الكريم في تلك الجزئية هو المدعوم بالمنطق، وخاصة أن التوراة ذاتها ذكرت أن يعقوب عندما لجأ إلى أرض المهجر إلى خاله (لابان) في منطقة حاران: [وأحب يعقوب راحيل. فقال أخدمك سبع سنين براحيل ابنتك الصغرى. فقال لابان أنا أعطيك إياها أحسن من أن أعطيها لرجل آخر. أقم عندي. فخدم يعقوب براحيل سبع سنين. وكانت في عينيه كأيام قليلة بسبب محبته لها] (تكوين ٢٩ : ١٨ – ٢٠)، وعلى هذا يتضح أن الزواج بهذه الطريقة كان متعارفاً عليه بين تلك المجتمعات، فالقرآن في قصة زواج موسى بابنة كاهن مدين كان أقرب للمنطق والأعراف السائدة في ذلك الوقت، حيث إن فترة (٤٠) سنة كمهر لابنة كاهن مديان تعد فترة ضخمة جداً، وخاصة أن موسى ظل حتى آخر يوم له في مدين يرعى غنم حميه كما ذكرت التوراة في أول فترة دخوله [وأما موسى فكان يرعى غنم يثرون حميه كاهن مديان، فساق الغنم إلى وراء البرية] (خروج ٣ : ١)، وذكرت عن آخر فترة مكوثه في مديان [فمضى موسى ورجع إلى يثرون حميه وقال له أنا أذهب وأرجع إلى إخوتي الذين في مصر لأرى هل هم بعد أحياء. فقال يثرون لموسى اذهب بسلام] (خروج ٤ : ١٨)، وكان معدماً عند خروجه كما دخل معدماً إلا من بضعة حمير وعصا كما ذكرت التوراة [فأخذ موسى امرأته وبنيه وأركبهم على الحمير ورجع إلى أرض مصر. وأخذ موسى عصا الله في يده] (الخروج ٤ : ٢٠). ولعل ما يزيد الطين بلة بخصوص الرقم التوراتي (٤٠) سنة أن موسى وهو في طريق عودته لمصر كاد أن يهلكه الرب حسب قول التوراة، فقامت زوجته بختان ابنه [وحدث في الطريق في المنزل أن الرب التقاه وطلب أن يقتله. فأخذت صفورة صوانة وقطعت غرلة ابنها ومست رجليه. فقالت إنك عريس دم لي، فانفك عنه. حينئذ قالت عريس دم من أجل الختان] (خروج ٤ : ٢٤ – ٢٦). ولنا هنا أن نتساءل عن عمر الابن الذي أجرت أمه ختانه بقطعة من الحجر الصوان، بعد أن انتهى موسى من فترة مدين، هل يكون في العقد الأول من عمره حسب التحديد القرآني، أم في الثلاثينيات من العمر حسب الزعم التوراتي؟!

ونختم الجدلية في هذا الموضوع بنقطة تتعلق بأخلاق واحد من أعظم أنبياء البشرية موسى عليه السلام والذي وصفه القرآن الكريم بأنه عند الله وجيها، حيث نرى أنه لجأ لمديان طلباً للأمان، وتزوج من أهلها، وأنجب أولاداً لهم أخوال منهم، لذلك تتملكنا

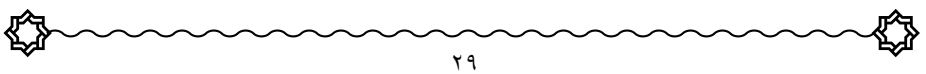

الدهشة حينما نقرأ كيف قام موسى برد الجميل لهؤلاء القوم حسب الفكر التوراتي، حالما عاد إلى أهله واجتمع بعشيرته، ونترك السطور تتكلم بلا أدنى تعليق من جانبنا: [وكلم الرب موسى قائلاً انتقم نقمة لبني إسرائيل من المديانيين ثم تضم إلى قومك. فكلم موسى الشعب قائلاً: جردوا منكم رجالاً للجند فيكونوا على مديان ليجعلوا نقمة الرب على مديان. ألفاً واحداً من كل سبط من جميع أسباط إسرائيل ترسلون للحرب. فاختير من ألوف إسرائيل ألف من كل سبط. اثنا عشر ألفاً مجردون للحرب. فأرسلهم موسى ألفاً من كل سبط إلى الحرب هم وفينحاس بن أليعازار الكاهن إلى الحرب وأمتعة القدس وأبواق الهتاف في يده. فتجندوا على مديان كما أمر الرب وقتلوا كل ذكر. وملوك مديان قتلوهم فوق قتلاهم. أوي وراقم وصور وحور ورابع. خمسة ملوك مديان. وبلعام بن بعور قتلوه بالسيف. وسبى بنو إسرائيل نساء مديان وأطفالهم ونهبوا جميع بهائمهم وجميع مواشيهم وكل أملاكهم. وأحرقوا جميع مدنهم بمساكنهم وجميع حصونهم بالنار. وأخذوا كل الغنيمة وكل النهب بالسبي والنهب والغنيمة إلى المحلة إلى عربات موآب التي على أردن أريحا. فخرج موشى وألعازار الكاهن وكل رؤساء الجماعة لاستقبالهم إلى خارج الدحلة. فسخط موسى على وكلاء الجيش رؤساء الألوف ورؤساء المئات القادمين من جند الحرب. وقال لهم موسى هل أبقيتم كل أنثى حية. إن هؤلاء كن لبني إسرائيل حسب كلام بلعام سبب خيانة للرب في أمر فغور فكان الوباء في جماعة الرب. فالآن اقتلوا كل ذكر من الأطفال. وكل امرأة عرفت رجلاً بمضاجعة ذكر اقتلوها لكن جميع الأطفال من النساء اللواتي لم يعرفن مضاجعة ذكر أبقوهن لكم حيات. وأما أنتم فانزلوا خارج المحلة سبعة أيام. وتطهروا كل من قتل نفساً وكل من مس قتيلاً في اليوم الثالث وفي السابع أنتم وسبيكم. وكل ثوب وكل متاع من جلد وكل مصنوع من شعر معز وكل متاع من خشب تطهرونه. وقال ألعازار الكاهن لرجال الجند الذين ذهبوا للحرب هذه فريضة الشريعة التي أمر بها الرب موسى. الذهب والفضة والنحاس والحديد والقصدير والرصاص كل ما يدخل النار تجيزونه في النار فيكون طاهراً غير أنه يتطهر بماء النجاسة. وأما كل ما لا يدخل النار فتجيزونه في الماء. وتغسلون ثيابكم في اليوم السابع فتكونون طاهرين وبعد ذلك تدخلون المحلة]. (عدد ٣١ : ١ – ٢٤).